الأم

القصة الفائزة بجائزة نوبل

عرض : فتحي الابياري

لقد عرست جميع الأديان والتقاليد حب الأم في نفوس الأبناء في كل مكان ، ومن كل لون وجنس . وعرست الطبيعة عاطفة الأمومة الجياشة في كل أم .. حتى الأم في الحيوان . وقد وهبتنا الظروف الاجتماعية في بلادنا العربية عدة مزايا وخصال تكاد تكون من معالم الأسرة في بلادنا . فأفراد الأسرة العربية يلتفون حول الأم ، بسبب الترابط والتماسك الأسرى ، وخاصة أن أحوالنا الاقتصادية تساعدنا على ذلك . أما البلاد التي تجبر كل فرد على أن يعمل ساعات طويلة مرهقة ومضنية في سبيل لقمةالعيش ، بحيث تخرج الأم ، ويخرج الأب ، ويخرج الأبناء جميعا كل صباح الى أعمالهم أو الى دراساتهم كأنهم قد شدوا في ساقية لا تقف أبدا . ان تلك الحياة القاسية لا تتيح الفرصة للأبناء أن يتمتعوا بأمهم عدة ساعات ، ليرتشفوا منها الحنان والحب والسلام ، والسبب في ذلك أنها مشغولة دائما في العمل خارج البيت ، وفي داخله . تلك الحياة القاسية جعلت بعض المفكرين والمصلحين يبتدعون يوما أسموه « يوم الأسرة » ، فيه يجتمع جميع أفراد الأسرة ليتحدثوا ويتسامروا مع بعضهم وليقدم كل صغير هدية للأم وللأب ، وبالعكس . وفي ذلك اليوم أيضا يتعرف الأب والأم على مشاكل أولادهم ليحلوها وليستمعوا الى آلامهم وآمالهم وأحلامهم .

أما الملاحظة التي استرعت انتباهي عندما بحثت في أدبنا القصصي عن عمل فني كبير يدور حول الأم ، أنني لم أجد قصة كبيرة مثل قصة الأديب العالمي مكسيم جوركي « الأم » ، أو مثل قصة « الأم » للكاتبة العالمية بيرل بك التي نالت عليها جائزة نوبل عام ١٩٣٨ . أو مثل مسرحية « الأم » للكاتب كارل تشابك .. وغيرها من القصص التي تدور حول « الأم » في عمل فني كبير . أما الذي عثرت عليه في أدبنا القصصي ، فهو عدد لا بأس به من القصص القصير عن الأم ، ولعل الأيام المقبلة تظهر لنا قصاصا عربيا ، يصور بقلمه لوحة خالدة للأم العربية .

وسبب اختياري قصة « الأم » لبيرل بك ، أنها قصة عالمية ، يمكن أن تحدث في أي مكان ، وفي أي زمان ، لأنها

تحلل النفس البشرية أدق تحليل ، وتغوص الكاتبة في أعماق نفسية « الأم » في مختلف أطوارها . وإذا كانت الكاتبة قد اشتهرت في العالم بقصتها الرائعة « الأرض الطيبة » ، فإن قصة « الأم » هذه في رأيي تفوق « الأرض الطيبة » ، لأن الكاتبة استطاعت أن تعبر بكل صدق عن مشاهد القصة الخالدة .

لقد حاولت بيرل بك أن تخلد كفاح أم من ملايين الأمهات في العالم . فجعلت أحداث القصة تدور في قرية صغيرة ، بدون اسم ، حتى يمكن أن تقع في أية قرية في العالم . ولم تطلق على « الأم » أي لقب . وإنما أسمتها « الأم » ، وجعلت كل أسماء شخصيات القصة بالرموز ، فسوف نعيش أحداث تلك القصة الفذة مع الأم والأب ، والابن الأكبر ، والابن الأصغر والابنة ، والعجوز (أم الزوج) والعم وزوجته والوكيل .. وبعض أهالي تلك القرية الصغيرة .

كانت «الأم» تقوم بكل الأعمال فهي تساعد زوجها في الحقل ، وتطهي الطعام ، وتنجب الأطفال وتتحدث مع حماتها العجوز ، وهذا الحديث يعتبر من أهم الأعمال التي ينبغي أن تقوم بها . ونفس الأعمال كانت تقوم بها كل يوم ، حتى تشابهت الأيام ، وانعدم الزمن بالنسبة لها .

فقد كانت تنهض في الفجر والكل نيام، فتطلق الدجاج والجاموسة وتقودها إلى الفناء . ثم تنظف مرابطها ، وتحمل الروث المتخلف منها إلى الكوم الموضوع في أحد أركان الفناء ، وتذهب إلى المطبخ حيث تغلي الماء لكي يشربه زوجها وأمه العجوز . وتضع بعض هذا الماء المغلي في وعاء لكي تغسل به عيني الطفلة . كانت هذه الطفلة تنهض صباح كل يوم موصدة العينين لا ترى شيئا حتى تغسل الأم عينيها .

وعندما رأت زوجها وهو يتثاءب ويحك رأسه ، قالت له :

— عندما تذهب لبيع قش الأرز في المرة القادمة ، فاقصد إلى حانوت الأدوية القريب من باب المدينة ، واطلب دواء للعيون المريضة كعيني هذه البنت . لكن الرجل كان ضيق الصدر من تأثير النوم ، وقال متبرما :

— ولماذا نضيع مالنا القليل في شراء دواء للعيون المريضة ما دام يستحيل أن تموت بهذا السبب ؟ إني كنت أشكو مرض العينين في صغري . ولم ينفق أبي شيئا على سبب هذا المرض ، رغم أني كنت ابنه الوحيد الذي بقي على قيد الحياة .

هكذا كان شأن الأم كل يوم .. لكنها لم تتململ مرة في تعاقب الأيام على هذا النحو ، ولم تتبرم بتشابهها وتماثلها .. ولو خاطبها أحد في هذا الصدد لحدقت فيه دهشة بعينيها السوداوين ، وقالت له :

— لكن الأرض تتطور بين زمن البذور والحصاد ، ثم يجني المحصول من أرضنا وندفع نصيب مالك هذه الأرض التي نستأجرها .. حبوبا .. ثم هناك أيام الأعياد والسنة الجديدة .. نعم .. وحتى الأطفال يكبرون ويشبون .. ثم أحمل من جديد .. كل شيء يتغير في نظري .. بل كل شيء يتطور ويتحلى

على العمل من مطلع الفجر الى مغرب الشمس .

كانت هذه الأم تستمتع بمظاهر حياتها وتعاقب ادوارها فيها . تستمتع بالوضع والعمل في الحقل . والأكل والشرب والنوم . وكنس الدار وترتيبها ، وسماع نساء المزرعة يثنين على براعتها في العمل والحياكة . بل ان التشاجر مع الرجل كان امرا طبيعيا وعاملا على اذكاء عاطفتها ومن اجل هذا كله كانت تستقبل اليوم الجديد بنشاط وحمية .

* * *

واستطاعت بيرل بك بأسلوب السرد المباشر ان تقدم لنا خلال الفصول الثلاثة الأولى كل شيء عن الأم وعن البيئة التي تعيش فيها ، وعن تفكيرها ، وأحلامها ، وآمالها . في دقة ، وحلاوة أسلوب ، وفي الفصل الرابع تبدأ الكاتبة في تصوير الجانب الآخر من الحياة التي تعيشها الأم . فترسم لنا صورة « الأب » الذي سيقوم بدور فعال في أحداث القصة ، وبحيث يلقى ضوءا قويا على شخصية الأم ، طوال المواقف المختلفة حتى النهاية .

فالحياة كانت لا تتغير في نظر الأب ، ولا أمل أمامه في جديد . بل ان ولادة الأولاد التي كانت الأم تجد فيها لذة وسعادة ؛ لم تكن بالجديدة أمام ناظريه ، فقد كان الأولاد يولدون جميعا سواء متشابهين . لهم عليه واجب القوت والكسوة ، واذا كبروا وجب تزويجهم .. ثم يولد لهم أبناء بدورهم فيحيون جميعا أيضا « بطريقة واحدة » وهكذا كانت الأيام تتعاقب متماثلة . وكل يوم لا يأتي بجديد .

وهو نفسه قد ولد في هذه المزرعة الصغيرة ، ولم ير في حياته جديدا الا ما كان من ذهابه أحيانا الى البلدة الصغيرة الكائنة وراء التل على ضفاف النهر . وهو اذا استيقظ في الصباح ، صافح عينيه منظر التلال المحيطة والسماء التي لا تتغير ولا تتبدل .. ثم يذهب الى الحقل فيظل يكد ويكدح حتى يجن الليل . ثم يعود الى البيت الذي ولد فيه وينام فوق الفراش الذي نام فيه من قبل مع والديه حتى كبر ، وأعدت له مرتبة خاصة .

بل لم يكن من جديد في هذا البيت سوى بعض الأدوات القلائل التي جيء بها عند زواجه .. وهي اناء لغلي الشاي وغطاء أزرق فوق الفراش وشمعدان جديد ، واله جديد من الورق لصق فوق الحائط ، وكان هذا الاله يمثل رجلا كهلا عليه مظاهر الغنى والمرح ، يرتدي ثوبا مؤلفا من الوان حمراء وزرقاء وصفراء متناسقة مؤتلفة . لكنه رغم هذا المظهر الساذج لم يجيء بالغنى المنشود الى هذه الدار ، وطالما تطلع الرجل الى هذا الاله ، ولعنه في ضميره ؛ لأنه كان يظل في مرح على هذه القرية الحقيرة التي كانت حقارتها لا تتغير ولا تتبدل .

وتظل هذه الأسرة الصغيرة تكد وتكدح مثل باقي الأسر الموجودة في تلك القرية . ولكن الأب لا يحتمل تلك الحياة ذات يوم ، فيرتدي أفخم ثيابه ، ويسرق كل القطع الفضية التي كانت « الأم »

تحتضنها الطوارىء ، ويغادر القرية ولا يعود اليها أبدا .

وقد ارادت بيرل باك بهذا الحدث ، أن تجعل شخصية « الأم » الاستاتيكية تتحول الى شخصية اخرى ديناميكية ، كلها حياة متطورة ، فيها صراع عنيف مع أعماق النفس ، ومع تقاليد القرية ، ومع أبنائها ، ومع الزمن . عند هذه النقطة بدأت « الأم » تواجه عدة مشاكل فكل من في القرية يسألها أين ذهب زوجها ، حتى المرأة العجوز والأطفال . كلهم يسألون .. اين ذهب الرجل ، ولماذا ذهب ، وبدأت همسات النسوة تتكاثر ، ولكن « الأم » كانت تبتدع في كل مرة أكذوبة حتى أصبحت الأكذوبة الكبيرة التى ابتدعتها حقيقة واقعة ، بل لقد صدقت هى تلك الأكذوبة وعاشت فيها .

* * *

بدأت أحداث تطورات شخصية « الأم » بعد ان اختفى الزوج ، وظلت المرأة العجوز تسأل وتلح فى السؤال :

ـ ترى أين ولدى ؟ هل قال لسى الى أين ذهب يا ابنتى ؟ عجيب .. أين ذهب ابنى ؟

وتجيب الأم قائلة :

ـ سيعود غدا ولا شك يا امى ، فارقنى الآن وانا نائمة .. سيعود غدا .
وتجيب الأم عندما يسألها أطفالها :

ـ سينام فى البلد بغير شك ، ويرجع غدا او بعد يومين .. سيعود ولا ريب بعد ان تنفد منه تلك النقود .

وتستطرد فى لهجة مريرة :

ـ وبعد ان يتسخ رداؤه الجديد ، ولا يبقى بد من غسله .

ومرت الأيام ولكن الرجل لم يعد ، وزاد همس النسوة ، وجئن اليها ذات يوم ، ليعرفن سبب هجر الرجل . وعندئذ اختلقت لهن قصة ، لتحافظ على كبريائها وكرامتها . فقالت لهن بجرأة :

ـ ان له صديقا فى مدينة بعيدة ، وقد اخبره هذا الصديق بوجود مكان يعمل فيه ويربح اجرا طيبا ، فلا يحتاج الى اجهاد انفسنا بالعمل فى الحقول . واذا لم يناسبه هذا العمل فسيعود سريعا ، اما اذا اعجبه ، فلن يعود حتى يمنحه سيده عطلة .

ودهشت العجوز وهمست :

ـ ولماذا لم يخبرنى بهذه القصة الطيبة وانا امه ؟ .

فانتحلت الأم قصة اخرى واجابت :

ـ طلب منى يا امى الا اخبرك بها لانه يعرف لسانك « السايب » ويخاف ان يعرف أهل القرية اكثر مما يجب . ولأنه يريد ألا يعرفوا شيئا اذا لم يستمر فى العمل .

فقالت العجوز وقد آلمها هذا القول :

ـ هل قال هذا حقا ؟ .. صحيح

يا ابنى انى كثيرة الكلام .. لكن لسانى « مش سايب » .

* * *

وهكذا ظلت الأم تكذب ، وتمعن فى الكذب والاختلاق وتحبك أطراف كذبها حتى تسبغ عليه طابع الحقيقة . واحتفظت بالهدوء والسكينة . وظلت تكدح بمفردها فى الحقل . وكان يشق عليها كما كان يشق على سائر الفلاحين ان تمنح المالك نصيبا من ثمار كدها .. لكنهم كانوا يتنازلون عنه صاغرين ، فكانت تحذو حذوهم .

لكنها كانت اذا انتصف الليل ، تبكى فى سكون ومرارة ولوعة . كانت تبكى لأنه ذهب وهجرها ، ولأنها أصبحت تستهدف للعار والفضيحة .. ولأنها امرأة وحيدة ، وقد بدت لها الحياة شديدة القسوة وهى تعول أربعة أنفس يعتمدون عليها .

واخيرا وجدت حلا لأزمتها وحيرتها . فقد ذهبت الى كاتب رسائل ، بعد أن باعت كل ما ادخرته من الأرز ، وحصلت على ورقة نقدية ثمنا لها . فقالت لكاتب الرسائل :

— اريد أن أكتب رسالة باسم أخ لى مشغول ولا يمكنه أن يعود الى بيته ، فاكتب ما أقول لك .. وهو مريض طريح الفراش .. ولذلك فانى أكتب بلسانه ..

وذكرت الأم اسم زوجها باعتباره اسم الأخ ، وذكرت اسم مدينة بعيدة كانت تعرف قربها لمسقط رأسها ، ثم ذكرت اسمها هى باعتباره اسم زوجة الأخ التى ستوجه الرسالة اليها ، كما ذكرت اسم قريتها لكى يبعث بالرسالة اليها ، وقالت له :

— اسمع ما يريد أخى ان يقول لزوجته :

« انى أشتغل شغلا متواصلا ولى مركز طيب ، والأكل متوفر لى ، وسيدى رجل كريم . وكل ما أؤديه من العمل هو اعداد الشاى لسيدى وتقديم قصبة التدخين له ، وحمل رسائله الى أصحابه وانى أتناول طعامى عنده وأنال ثلاث قطع من النقود الفضية فى الشهر ، وقد اقتصدت من أجرتى عشر قطع فضية حولتها ورقا ماليا له قيمة الفضة فى هذه الأيام ، فابعثها على أمى وعلى نفسك وعلى الأولاد .

فقال لها الكاتب : أهذا كل شيء ؟

فاجابت الأم : لا .. قل هذا أيضا .

« لم أتمكن من الحضور فى عيد السنة الجديدة لأن سيدى يحبنى كثيرا ولم يتيسر له أن يستغنى عنى . لكنى

سأحضر في السنة القادمة اذا تمكنت ، واذا لم اتمكن فسوف ارسل اليك كل ما ادخره من أجرتي مرة في السنة » .

وقل هذا ايضا .. « اخبري امي العجوز اني ساحضر لها عند رجوعي قماشا احمر لصبغ كفنها الثالث ، وسيكون من أجود الأصناف . » .

وهكذا استطاعت الأم بتلك الأكذوبة المحبوكة أن تتذكر امسها وان ترد زوجها للقرية ، انما كان للبحث عن عمل أرقى وأفضل . وأخرست الأكذوبة كل الأقاويل والهمسات .. بل لقد مكنت لأكذوبتها البقاء فترة طويلة حينما قالت في رسائلها « واذا لم أتمكن فسوف أرسل اليك كل ما ادخره من أجرتي مرة في السنة » . وعندما وصلت الرسالة الى القرية ، فرح الأطفال . وظل الغلام يقول لكل من يصادفه ان رسالة وردت من أبيه . وأحدثت الرسالة دويا كبيرا في القرية الصغيرة ، وتأكدوا من صحتها عندما راوا مع « الام » الورقة المالية . فتراجعوا امامها في تجلة واحترام ، وسارت الأم الى بيتها مغرورة مزهوة ، يتبعها الطفلان وهما يشاطرانها هذا المجد . ولكنها عندما خلت الى نفسها ظلت تبكي في صمت وسكون . ولم تكن الرسالة ولا الورقة المالية سوى هباء أو كالهباء بالقياس الى كرامتها المجروحة . ولكن تلك الأكذوبة كانت لها قيمة كبيرة ، اذ لم يعد أحد من أهل القرية يعيرها بانها امرأة هجرها زوجها . بل لقد جعلت بعض اهالي القرية يسعون اليها سرا للاقتراض منها ، وكان في طليعتهم كاتب القرية وبعض الرجال المتطلعين الذين ارسلوا زوجاتهم للحصول على هذا القرض .

* * *

لقد كانت هذه « الأم » منذ بدء شبابها مخلوقة ذات مشاعر متأصلة ، واحساسات عميقة ، ولكنها ساكنة صامتة . كانت امرأة عميقة الفؤاد ، موفورة الحياء .. ولم يحدث قبل زواجها ، وحين كانت فتاة عذراء ان اتجهت بخواطرها الى الرجال من حيث هم رجال . وكانت اذا هزتها المشاعر العنيفة والأشواق العرمة عن نفسها لا تتطلع قط الى الرجال لترى كنههم وتستقصي شبابهم ، بل كانت تطوى الضلوع على حنينها وأشواقها وتحتملها في صبر وسكون وانتظار . فلما تزوجت وأدركت كنه الرجل ، سطع امام عينيها قدر يسير من ذلك الحنين العميق الصامت الذي كان يعيش في نفسها .

وفي براعة فائقة طفقت بيرل بك تحلل وتمهد الطريق للموقف العنيف الذي ستقع فيه الأم . فقد صورت لنا في سطور قليلة بدون اسهاب او اطالة ، طفولة وشباب هذه الأم .. الى ان وصلت الى ذروة النضوج ، وعنفوان حياتها .. ثم هروب الزوج ، وتركها في قمة الشباب ، مكبلة بأغلال المسئولية .. مسئولية أربعة ارواح . وأغلال الكذب فلو كان في عداد الأموات ، لأصبحت ارملة ، واتضح كل شيء . ولكنها كانت مضطرة كل يوم الى الكذب حين يسألها كل من يصادفها عن زوجها . لكنها عندما

تستقر في بيتها ، تشرق علينا بهذا الكذب المتصل ، وكانت احيانا تعصرها الوحدة ، ويطغى عليها الحزن ، فتهتف من أعماق قلبها : « ما أتعسني واشد وحشتي .. انا التي أخلق لنفسي رجلا من عالم الكذب والأوهام .. ! » .

* * *

ولم يفطن احد الى ما تعانيه « الأم » من قسوة الوحدة ، والشوق الى الرجل الا وكيل مالك الأرض ، الذي كان يحضر الى القرية ليأخذ نصيب المالك ونصيبه . استطاع هذا الرجل بخبرته ، وبغريزته ان يعرف ان هذه المرأة في حاجة الى شيء .. فظل يتردد اليها . ولم يأخذ منها نصيبه ، قائلا لها :

« أنت الآن امرأة وحيدة وقد ذهب زوجك من البيت ، وكل هذا المحصول من عملك الخاص . ولن آخذ من المحصول سوى نصيب المالك .. ولن آخذ أي أجر منك أيتها الزوجة الطيبة .. »

وظل يحوم حولها ، حتى لم تقو على المقاومة . ونجحت بيرل بك في تصوير هذا الموقف الشائك ، أو مشهد الذلة التي وقعت فيها « الأم » بعد صراع عنيف جار مع نفسيتها ، ولكن الغريزة المتأصلة في أعماق الانسان كانت أقوى وأعنف . كانت كالاعصار الرهيب الذي يطوى كل شيء يصادفه . وجرف في تياره « الأم » أيضا .

ففي الفصل العاشر ، صورت الكاتبة المشهد الشائك ، دون أن تنزلق قلمها في مهاوي البورنوجرافية ، التي تتعمد اثارة الغرائز الحسية فقط .

« واستولى عليهما ذعر شديد لم تحس مثله في حياتها ، فقد أدركت ان هذا النهم الذي يساورها الآن سيزيد استعارا وضراما اذا لم ...

وهي لم تحلم بأنها ستقوى على الرفض والمنع وهي تعلم الآن أن هذا النهم الذي بها هو نفس النهم الذي به . وجعلت تئن انينا عاليا وتناجي نفسها قائلة :

ـ من الخير الا يسألني شيء اراه .. كم أود الا يسألني .. وان اسعو .

على انها نهضت . من الفراش ، حتى وهي ترسل هذا الأنين وغادرت القرية النائمة وعادت الى الحقول . وسارت في الطريق الضيق الملتوى الى حيث كان ينعطف حول معبد صغير مهجور .. حيث وقف الرجل عند بابه ينتظرها .. ولم تستطع ان تجاوزه .. كلا .. فقد دخل المعبد وانتظر ..

فتبعته الى الباب وأرسلت نظرها .. فاذا هو واقف في الداخل يترقب ، وقد لمعت عيناه في المكان الظليل كعيني الحيوان الوحشي .. فدخلت .

وقفا يتطلعان احدهما الى الآخر في الضوء الكليل ..

كانا مخلوقين غارقين في حلم .

متبنيين .. لا توقفهما قوى الدنيا في هذه اللحظة .. وتأهب كلاهما للأمر المحتوم ..

غير أن المرأة أمسكت لحظة .. فقد أفاقت من حلمها ورأت آلهة المعبد الثلاثة .. كبيرهم كهل وقور يحدق أمامه، والى جانبه تابعات أقل شأنا .. وهم جميعا أرباب طيبون أقيمت أنصابهم في جانب الطريق للمسافرين ممن يتعبدون أو يلتمسون الاعتصام بالمعبد ..

فتناولت الرداء الذي وضعته جانبا وذهبت الى الآلهة فطرحته فوق رءوسها، وحجبت أعينها الناظرة المحدقة ... »

• • •

لقد ارتكبت « الأم » هذه الخطيئة مرة واحدة، ولم تعد اليها، وان كانت في شوق وحنين الى العودة اليها . ولكن ميرل بك لم تغفر لهذه الأم خطيئتها تلك، بل صبت عليها اللعنات، وعاقبتها أشد معاقبة . اذ أصيبت ابنتها الوحيدة الجميلة بالعمى . وعندئذ بدأت المرحلة الثانية من حياة « الأم » شاعرة بأنها قد أجرمت في حق ابنتها المسكينة، وذلك بعد أن سمعت كلام الرجل الذي يبيع المقابر !

« وما فائدة الحزن ؟ هذا مصيرها .. لأنها في حياة أخرى قد ارتكبت عملا شريرا أو نظرت الى مشهد محرم، فاستحقت هذه اللعنة أو أن يكون أبوها أو أنت أمها الزوجة الطيبة قد ارتكبتما اثما .. فمن يعلم سر الانسان ويطلع على خفايا قلبه ! لكن مهما تكن الحقيقة فان اللعنة واقعة هنا على هذه الصبية ولا مقدرة لمخلوق على دفع القضاء، ونقض ارادة السماء .. » .

لقد كان العقاب صارما، خاصة وانه لم يقع على الأم مباشرة، وانما حل بمخلوقة بريئة . عندئذ استحوذ على الأم شعور بالنفور والمقت من نفسها . واحست بأنها تخلصت نهائيا من شهوات الشباب ونزواته وجماحه، وانطوت صحائفه من سجل حياتها، وانطمست في نفسها صورة الرجل من حيث هو رجل .. ولم يبق في سمائها سوى ولديها وابنتها العمياء .. والعجوز .

ولى عهد الشباب من الأم، ويقف سنها على الثالثة والأربعين . وتمرد الابن الأكبر، وصرخ فيها عندما علم أنها وعدت الابن الأصغر بخاتم فقال لها « وهل كنت طفلا وأنا في الرابعة عشرة ؟ هل كنت ألعب في موسم الحصاد وأنا في الرابعة عشرة من عمري ؟ وهل كنت ترشين بخاتم أو رداء جديد أو غيره، مما لم آكن أربحه وأناله بكدي ؟ » .

ثم قال لها مستنكرا « نعم ! .. أنت تحتفظين بالنقود ! .. وأنا أعطيك كل ما أربحه ! .. وأنا لا آخذ شيئا واحدا لشخصي ولا أدخن قصبة صغيرة ، ولا أشرب قدحا من الخمر ، ولا أشترى لنفسي شيئا مما يناله أي شاب ويعده حقا لنفسه ! .. ومع ذلك فأنت تعذبينه بكل ما لم آلفه في حياتي ! .. ولأي داع ؟ « لكي نقوم بالعمل الذي يجب أن نؤديه بلا مقابل حتى ندفع ثمن ما نأكل وما نشرب ! .. »

* * *

عندئذ أحست « الأم » « أن الزمن يدور » ، وأن الابن قد كبر . لذلك سارعت بتزويجه . وأحست أنها تعيش في دور جديد من أدوار حياتها .. دور الحماة . واستغرقت الكاتبة أكثر من فصلين لتحليل مشاعر الأم في تلك المرحلة الجديدة والمشاكسات التي كانت تدور بينها وبين زوجة ابنها التي لا تلد . وسمحت « الأم » بعد لأي في تزويج ابنتها لزوج لم تره .. فقد جاء أحد أقربائه وأخذ ابنتها الى مكان مجهول . ومضت الأيام سراعا ، فاشتاقت الأم الى رؤية ابنتها ، فذهبت اليها بعد رحلة شاقة ، وعندما وصلت الى المكان الموحش الذي توجد فيه ابنتها .. فوجئت بأنها قد ماتت منذ لحظات .. وكانت صدمة عنيفة وقاسية لأنها شعرت بأنها قد أجرمت في حق ابنتها المسكينة وزوجتها دون أن ترى الزوج وأهل زوجها .

* * *

وتوالت الصدمات ، فقد قبض على ابنها الأصغر بتهمة الشيوعية ، وحاولت أن تنقذه ، ولكن فقرها حال دون ذلك وذهبت لترى ابنها وهم يعدمونه . وعادت الى القرية والأحزان تطفح منها . وهاتف من الأعماق يقول لها « كل هذا بسبب خطيئتك » .. ولكن البؤس للعقاب نهاية ، وما دب الأولاد الأبرياء . لقد عميت ابنتها وماتت بعيدة عنها . ثم رأت بعينيها الدم ينبثق من رقبة ابنها وهو يعدم . والآن .. انها تجلس وحيدة .. قلقة ، حتى أنها لم تر حفيد ابنها فقد مرت السنوات وزوجة ابنها الأكبر لم تلد .

كانت كل حياتها ، أن تجلس أمام الدار ، تستعيد ذكريات شباب أيام أن كانت تراقب أولادها وهم يلعبون في التراب ، وأيام أن كانت تنتظر عودة زوجها من الحقل . واستعادت ذكريات الأكذوبة التي جعلت القرية تعيش فيها حتى أنهت الأكذوبة بعد مرور عشرين عاما ، بأكذوبة أخرى ، وهي موت زوجها لتستريح من التفكير المتواصل في

زوجها ، ولتؤمن بالحقيقة الواقعة أن هذا الزوج قد ذهب ولن يعود .

وفيما كانت غارقة فى أحلام ذكرياتها ، جذبها الى عالم الواقع صوت ابنهـــا الأكبر صارخا :

ــ أمي .. أمي .. جاء ولــدى .. حفيدك يا أمي ! ..

وعــندئذ شاعت الفرحة على جميع قسمات وجهها ، وذهبت مسرعة لترى حفيدها ، وراحت تنظر اليه من رأسه الى قدميـــــه وتضحك وتعاود النظر . وأخيرا دارت بعينيها فى أرجاء الغرفة تلمس زوجـــة العم ــ المرأة الوحيدة التى كانت تعرف سر الخطيئة لأنها قامت باجهاض الأم ــ فاذا هى واقفـــة بين النساء وقد تعلق بها بعض أحفـــادها لرؤية هذا المشـهد .. وما كادت الأم « العجوز ترى زوجة العم حتى رفعت الطفل بيديها لكى تراه صاحبتها .. وهتفت وهى تضحك عاليا ، وقد نسيت امتلاء الغرفة بالنســاء ، وبدت عيناها منتفختين من أثر البكاء المتصل :

ــ انظرى يا بنت عمى ! .. انى أشك فى امتلاء نفسى بالذنوب ــ كما خيل الى فيما مضى .. هل رأيت حفيدى ؟ ..

وبتلك العبارة أنهت نيرل بك أروع قصصها « الأم » . واستطاعت خلال تسعة عشر فصلا أن تجعلنا نعيش بكل أحاسيســنا ووجداننا مع تلك الشخصية النامية شخصية «الأم» ، ومع شخصية ابنهـا الأكبر ، وابنها الأصغر . بل مع كل شخصيـة فى القصـــــة . فقد كانت حبكتها الفنية من الجودة والروعة بحيث لا يمكن أن تنتزع كلمة واحدة . ونجحت الكاتبة عن طريق السرد المباشر فى تحليل نفسية الأم ، تحليلا نفسيا دقيقا فى كل مرحلة من مراحل تطور الشخصيـــة .

• • الحق .. ان هذه القصـة تعتبر من أبدع القصص الانســــانية التى تدور حول « الأم » . اذ بعدت عن الدعاية السياسية كما حدث فى قصة « الأم » لمكسيم جوركى . وتخلصت من الصـنعة وبعض الافتعال كما حـدث فى مسرحية « الأم » لكارل تشابك . ولذلك تعتبر القصه خير هدية لكل أم .. فى العالم .